قصائد الحرب في أدب الأطفال
الشعر السوري المعاصر نموذجًا

سامر أنور الشمالي *

ليست كل الموضوعات صالحة للمعالجة في الأدب المُوجَّه للأطفال، لاسيَّما التي تفُوق مستوى إدراكهم، ولا تتعلق بحياتهم بشكل مباشر، أو التي لا يهتمون لها لأنها بعيدة عن دائرة تفكيرهم وأحاسيسهم ومشاعرهم. كما لا يُنصح المختصون بإقحام الأطفال في لُجَّةِ موضوعاتٍ لا تتناسب مع عالمهم في مراحل عمرية معينة.

وللوهلة الأولى يبدو موضوع الحرب من الموضوعات التي لا يجب التطرق إليها في أدب الأطفال، بافتراض أن لا علاقة للأطفال بالحروب التي يصنعها الكبار الذين لا يبالون بالدمار والمجازر التي تطال الكبير والصغير؟!.

ورَحَى الحروب لم تتوقف على الكرة الأرضية، وهناك مناطق ساخنة استعرت فيها الحروب لسنواتٍ طويلة. فكيف يمكن إبقاء الأطفال بعيدًا عن الحروب التي تجري حيث يسمعون أصوات القذائف تقترب منهم، وقد يستيقظون على أصوات انفجارات مُدوِّية بجوار منازلهم، ولنا أن نتصور مدى الرعب والخوف الذي يعيشونه وهم يرون سقوط القتلى وتَبعثُر أشلاء الموتى من حولهم، وهم يفرون مع أفراد أُسَرهم الذين يحاولون العثور على مكانٍ آمنٍ يختبئون فيه. ولا نغفل أنه يمكن أن يمنع الأطفال من الخروج إلى المدرسة لأيام وشهور لأن المنطقة غير آمنة، وقد يعيشون في مُخيَّمات اللجوء لسنواتٍ ضمن ظروفٍ في غاية السوء.

والطفل يعيش أحوال الحرب يوميًا مع أسرته، ويُنصت إلى مَنْ حوله من الكبار الذين ينسون، أو لا يراعون، أن في المجلس طفلًا يلتقط ما يسمع من أشياء تبدو غريبة غير قابلة للفهم له، بل ومُروِّعة ومخيفة، لهذا الكائن اللطيف الذي لا يتخيَّل أن في العالم الكبير كل تلك الشرور والأهوال والكوارث.

* كاتب وناقد أدبي، سوريا .

لهذا لا بد أن نشرح للطفل ما يجري حوله بحسب مداركه ليستطيع التأقلم مع هذا العالم الغريب المخيف. ولا شك في أن هذا الأمر في غاية الصعوبة بالفعل، فكيف نشرح للطفل أن كل هذا الدمار والقتل من حوله بسبب الصراع على السُّلطة؟ أو تبايُن الإثْنِيَّات؟ أو اختلاف الأديان والمذاهب؟! أو تعدُّد الانتماءات العقائدية؟!.

لا شك في أن الأمر ليس في تلك السهولة التي قد نتوقعها، وهي ليست بحاجة إلى أديبٍ أريبٍ يمتلك ناصية اللغة الصحيحة والأسلوب البسيط فحسب، بل بحاجة أيضًا إلى أديبٍ له الإلمام الكافي بعلم نَفس الطفل كي يعرف كيف يخاطب الطفل بطريقة تناسب عمره، دون إغفال الابتعاد عن التلقين والخطاب المباشر؛ لأن هذا الأسلوب لن يؤثر في الطفل بالطريقة المناسبة، ولن يساعده على تخطّي أزماته النفسية، وهنا تكمن أهمية أدب الأطفال في أنه قد يكون السبيل المناسب لعلاج الطفل نفسيًا في ظروف حياتية صعبة لا تتناسب مع عالمه البريء.

وعلينا ألَّا ننسى أنه في تلك السن الصغيرة يمكن المحافظة على نقاء الإنسان الذي يريد السلام ويسعى إليه، والتلقيح ضد الأفكار المتطرفة التي ترتكز إليها كل المنظمات الإرهابية، فكل الإرهابيين كانوا أطفالًا، وكل الأبطال كذلك. ولكن هناك فرق كبير بين مَن يخوض الحرب دفاعًا عن أرضه وأهله، ومن يصطنع الحروب لنشر الدمار والفوضى من حوله، وهذا ما يجب أن نعلمه للطفل أيضًا. بل أهم الأفكار التي يؤمن بها الكبار تم اكتسابها في السنوات المبكرة من أعمارهم، وهنا تكمن أهمية أدب الأطفال ودوره في المجتمعات.

في بحثنا اعتمدنا باقةً مختارةً من قصائد الحرب كُتبت أثناء الحرب الضَّرُوس التي استمرت لما يقارب العقد من الزمن، لمجموعة من الشعراء السوريين الذين عاشوا زمن تلك الحرب وعانوا من أهوالها.

الأديب (نجيب كيَّالي) صاحب التجربة الطويلة في أدب الأطفال اختار تصوير الحرب كما رأتها طفلة صغيرة تتحدث بعفوية وبساطة عن حياتها في ظلها، فقدم قصيدة تحاكي الأطفال بحسب إدراكهم لما يجري حولهم من أحداث غريبة عن عالمهم البريء.

(أنا لستُ أنسى دُمْيَتي
أنا لستُ أنسى حُلْوَتي
لولو الصديقةُ والحبيبهْ
لولو اللطيفةُ والقريبهْ

غادرتُ بيتي خائفهْ
والحربُ كانت زاحفهْ
وصديقتي ظلَّتْ هناكْ
محبوبتي بقيتْ هناكْ)

نجح الشاعر في تقديم أحزان الأطفال التي تسببها الحروب بطريقة لطيفة ومناسبة، تبتعد عن المُباشَرة الفَجَّة التي يقع فيها أكثر من كتبوا للأطفال عن الحروب وأهوالها.

القاصُّ والشاعر (مُهنَّد العاقوص) الذي حقق حضورًا لافتًا في أدب الأطفال لا يتحدث عن الحرب بشكلٍ مباشرٍ بل عن نتائجها، ضمن حيِّز مفردات الطفل وعالمه.

(أَنَا طِفْلٌ بِلا وَطَنِ
هَجَرْتُ الدَّارَ يَا غَيْمَهْ،
أَنَا والْبَرْدُ فِي خَيْمَهْ
بَعِيدُ مَلْعَبُ الْمَرْجِ،
وَفِيهِ رِجَالُ مِنْ ثَلْجِ
رِفَاقِي غَادَرُوا الْمَلْعَبْ،
فَكَيْفَ بِدُونِهِمْ أَلْعَبْ؟!).

لقد عبَّر الشاعر بلغة الأطفال عن الطفل الذي سُرقت منه أفراحه الصغيرة باكرًا، حتى إنه لم يعُد يجد مكانًا يلهو فيه مع رفاقه بعدما أصبح مشردًا؛ لهذا يخاطب الغيمة ويشكو لها سوء حاله.

الشاعر (موفق نادر) صاحب الصور الشعرية المشغولة بمهارة يلتقط صورًا واقعية وحية عن الحرب. وهي في منتهى القسوة على مُخيِّلة طفل صغير، ولكن يبدو أنه لا بد منها ليعرف الطفل حقيقة ما يجري حوله.

(فسارَ نحوَ بيتهِ في آخرِ الزُّقاقْ
مؤمِّلًا أن يلتقيْ بقيّةَ الرِّفاقْ
لم يهتدِ لبيته فلم يعدْ هناك من بيوتْ
وها هو زُقاقهمْ يبدو كما التابوت
فسار تحت زُرقةِ السَّماءْ
لا يعرفُ الأشياءْ

وناسيًا أنْ يقتلَ الفراغَ بالبكاءْ
حتى أتى عصفورْ
وحطَّ فوقَ كتْفهِ وغنّى
لحظَتَها تقاطرتْ من عينهِ الدموعْ
كأنَّها يُنبوعْ
لم يهربِ العصفورُ من نشيجهِ المسموعْ
حتى أتتْ من آخرِ الفضاءْ
قذيفةٌ حمقاءْ
فاتّحدَ العصفورُ والصبيّ والسماءُ)

وتبلغ المأساة ذروتها عند موت الطفل والعصفور، ولا نستطيع ملامة الشاعر على ذلك لأنه لا بُدَّ من عكس الواقع في الأدب، حتى في الشعر المُوجَّه للأطفال، فالكثير من الأطفال يعيشون هذا الواقع.

الكاتب المعروف (هيثم يحيى الخواجة) الذي أبدع في الكتابة للأطفال في مجال القصة والمسرح والشعر، يقدم أيضًا صورًا صادمة عن قسوة الحرب التي لا ترحم الأطفال ولا ترأف بطفولتهم، فقد تحدث عن الطفل الذي يهرب من القنابل التي تهدده بالموت فتجعل كل شيء مظلمًا من حوله. ولكن سرعان ما يتجاوز الطفل الموت عند الحديث عن أنوار البلاد التي ستأتي بعد نهاية الحرب اللعينة.

(فوقَ الغيمِ يطيرُ يطير
يبحثُ عن وُدٍّ وضمير
ذاك النجمُ صديقُ سمير
وسمير يهربُ من موت
وقنابل تتبعُها ظُلْمة
ذاك النجمُ ينادي
ما أحلَى أنوارَ بلادِي
ما أغلى الدار)

نجد في هذه القصيدة الطفل يهرُب من الموت الذي يلاحقه من مكانٍ لآخر على أرض وطنه،

ورغم ذلك يرفع رأسه للأعلى حيث النجم الذي يغني للوطن الذي يظل غاليًا على القلوب، وبذلك جعل النجم يرسل شعاعًا من نور إلى أرض الأطفال.

عالج الشاعر (برهان الشليل) مختلف الموضوعات التي تتعلق بالأطفال وعالمهم، وقد اخترنا قصيدته التي يتحدث فيها عن مرحلة ما بعد الحرب، ولكن بعد التذكير بمآسي الحرب السالفة. ثم يتحدث عن المستقبل المنتظر المشرق.

(نحنُ ضحايا الحربِ الحَمْقَى
والتجويعِ والإرهاب
وحصارٍ قد لفَّ بلادي
عشناهُ وبكُلِّ عذاب
شُرِّدنا في أرضِ الوطن
ولقينا جوعًا وخراب
فغدًا سنعودُ لأوطاني
وسنكتبُ (باسم) و(رباب)
وسيعلو صوتُ الأطفال
عُدْنَا عُدْنَا بعدَ غياب
ما أحلانا نبني وطنًا
وبِعِلْمٍ تُفتح أبواب
يا وطني الطيبَ يا وطني
أرضُك ملقى للأحباب
المستقبلُ آتٍ آت
وطموحُ يزهو وثَّاب
مَرْحَى يا أطفالَ بلادي
وبِكُم تعشبُ أرضَ يبابِ).

جملة هذه القصيدة التي تبعث الفرح والأمل في نفوس الأطفال، لاسيما في المناطق التي تقع فيها الحروب؛ ليظل الأطفال يحلمون بأن الفرح قادم وأن حياتهم لن تكون في ظل الحروب المستمرة التي لا ترحم الطفولة والأطفال.

ينفرد الشاعر (مفيد نبزو) في قصيدةٍ يتحدث فيها بلسان الأطفال عن حقهم في حياةٍ كريمةٍ تخلو من الحروب، وهي أمنية عزيزة على الصغار، والكبار أيضًا، وليتها تتحقق في القريب العاجل.

(أيُّها العالمُ اسمعْ
نحنُ أطفالٌ صغارْ
لا نريدُ اليومَ مِدْفَعْ
يملأُ الدنيا دَمَارْ
أيُّها العالمُ اِسْمَعْ
متَى نحيا بسلامْ؟!
في أراجيحِ السُّرورْ
ونغنِّي للحمامْ)

ثمَّة أجيال فتحت عيونها على الحرب وأهوالها ولعبت بفوارغ الرصاص والقنابل وليس بالألعاب والدُّمَى والأراجيح. ولكن الشاعر جعل الأطفال يغنون في نهاية القصيدة لبلادهم التي يحبونها، في إشارةٍ للأمل الموعود المنتظر.

يتميز الشاعر (صبحي سعيد قضيماني) بخبرته في مجال أدب الأطفال، وقد عالج موضوعًا نادرًا ما ينتبه إليه شعراءُ الأطفال رغم أهميته البالغة، حتى الشعراء الذين كتبوا عن الحرب ومآسيها لا يفطنون إليه غالبًا. فبعد انتهاء المعارك تبقى على أرض المعركة مُخلَّفات من قنابل غير متفجرة، أو ألغام مزروعة، وقد يمسكها أو يلعب بها الأطفال وهم غافلون عن أن هذا قد يعرض حياتهم للخطر، أو يتسبب في فقدان أطرافهم.

(ألَّا أَلْمُسَ شَيئًا بِيَدِي
قَدْ يَرْميني بِأَذًى قاتِل..
وإذا نَظَرَتْ عَيني شَيْئًا
يوحي أنِّي لا أَعْرِفُهُ،
أَسْعَى كَيْ أُخْبِرَ بالهاتِف
مَن هو مثلِي، فكرُ عارِفْ
كَيْ يَحْميني مِمَّا أَجْهَلْ)

وهنا لا بُدَّ من التأكيد أنه يجب إدراج مثل هذه القصائد في المناهج الدراسية في الدول التي وقعت فيها الحروب، أو تعليمها للأطفال في مُخيَّمات اللجوء؛ درءًا للخطر الذي قد يتعرض له الأطفال عند عودتهم إلى أوطانهم المنكوبة. ومن الجدير بالذكر أنه حتى اليوم تطالعنا الصحافة المحلية من وقتٍ لآخر بانفجارِ لُغْمٍ أو عَبْواتٍ ناسفةٍ بأطفال كانوا يلعبون بين الأنقاض.

في الختام ثمَّة سؤال يطرح نفسه:

إذا كان هناك ضرورة لا مفرَّ منها للتحدُّث في أدب الأطفال عن الحروب في الدول التي تقع فيها النزاعات المسلحة، فهل هناك ضرورة لإيصال هذا الأدب إلى الأطفال الذين يعيشون في بلدان آمنة لم تقع فيها مثل تلك الحروب؟ وما الفائدة من أن يعرف الأطفال في سِنٍّ مبكرةٍ أنه تقع على الأرض مثل تلك الحروب الضَّرُوس التي لا ترحم الأطفال ولا تشفق عليهم؟!.

لا بُدَّ من القول هنا إن الطفل في العصر الحديث لا يعيش في حجرة منعزلة عن العالم، فلا نستطيع مراقبته ومنعه من مشاهدة التلفزيون – على سبيل المثال – لهذا سيرى وسيسمع عن الحروب في البقا ع البعيدة في الأرض. بل إن أفلام الكارتون المُوجَّهة للأطفال لا تخلو من الحروب أحيانًا، سواء أكانت الحروب بين سكان الأرض أم الغُزَاة من الكواكب الأخرى، أو بين البطل الطيب وأنصاره، والشرِّير وأعوانه. لهذا؛ يجب علينا ألَّا نفكر في محاصرة الأطفال ومنعهم من التفاعل مع العالم من حولهم، بل البحث عن الطريقة المناسبة لنجعل ما يجري على الكرة الأرضية مفهومًا للأطفال بحسب أعمارهم، وللأسف فالحرب من تلك الأحداث التي تقع على الأرض.